**ملتقى البيوطيقا: حوار جديد بين العلم والفلسفة**

د/عيساني الطاهر

عنوان المداخلة: الضوابط الاخلاقية القانونية والبيوطيقية في الطب.

**تمهيد:**

تعد الفلسفة الايكولوجية عند هانس يوناس قراءة نقدية جديدة للأخلاق التقليدية التي توصف بأنها تهتم بالإنسان و مصالحه- وهي كذلك نقدا للتكنولوجيا المعاصرة التي تسعى إلى خدمة مصالح الإنسان على حساب الطبيعة مع نقد جميع الأنظمة الاقتصادية والسياسية المعاصرة وخاصة النظام الديموقراطي. لذا تدعونا الفلسفة الإيكولوجية عند هانز يوناس إلى الحد من هذا الخطأ وضرورة الإسراع في الحد من استغلال الإنسان للطبيعة ومقدراتها ومن ثم العمل على المحافظة عليها.

المقاربة الإيكولوجية الأخلاقية بمختلف ألوانها، سعت إلى تأسيس خطاب إيكولوجي عميق، يتجاوز ضحالة اختيارات المجتمعات الصناعية في معالجة الأزمات البيئية، ويراجع الطرق التقليدية للفلسفة الغربية ونموذجها الإرشادي المعرفي الحداثي، بغرض تطوير بدائل فلسفية كفيلة بصياغة مُثل أخلاقية جديدة، تستجيب لمستجدات الإنسان المعاصر، وتعيد تقييم المحيط البيئي، بناء على منطلقات تروم التوازن الطبيعي وفق منطق تعاقدي طبيعي خلاق، يضمن التقدير العادل والشمولي لكل الموجودات

1. **مدخل عام:**

لكن هذا التصور الجوناسي لا يعني أنه أعلى من شأن النظم الاستبدادية التي تكون فيها السلطة والسيادة في يد شخص واحد إنما يرى أن الحرية والديمقراطية نظام مرغوب فيه لنه يكفل تحقيق الحاجيات الأساسية المادية منها وغير المادية للجميع، لكن ينبغي أن يكون ذلكفي إطار قانوني، لأن القانون هو الذي يحكم أنانية الإنسان ويجعله يمشي وفقا لما تقتضيه إرادة الحاكم وليس الشعب، وبالتالي فهو يفض أن يكون الحكم والسلطة السياسية في يد حاكم واحد يكون هو الوصي على المحكومين، لا أن يكون الحكم في يد الشعب، الذي هو بطبيعة الحال ووفقا لطبيعته وفطرته سيسخر هذا الحكم والقرار لصالح حاجاته الخاصة.

والمسيحية خصوصا في نسختها الغربية، هي الديانة الأكثر تمركزا حول الإنسان. التي عرفها العالم، وهي- بالتعارض المطلق مع الوثنية القديمة وديانات آسيا- لم تؤسس ثنائية وتعارضا بين الإنسان والطبيعة فقط، بل وألحت على أن إستغلال الإنسان للطبيعة ناتج عن إراده الله، وأن نزع القداسة عن الطبيعة في الإنجيل هو واجب مقدس يدخل ضمن مخطط إلهي. والتراتب المصرح به في النصوص المذكورة سابقا، أي سمو الإنسان على بقية المخلوقات وخلق الله للإنسان على صورته، قدم تبريرا لسلوك الإنسان تجاه الطبيعة ولهيمنته عليها، شرعية لمكانته المميزة وسط الكون، شرعية أدت إلى موقف (متغطرس) تجاه الطبيعة. وهكذا تبقى مقاربات هانس يوناس الأخلاقية في فلسفة البيئة من أهم المقاربات في هذا المجال، وذلك لدورها الرائد في إثارة وتنبيه وعي معظم المشتغلين والمهتميــن بفلسفات البيئة.

لقد تبين أن الخطاب الأخلاقي يحمل انشغالات الحفاظ على الهوية الإنسانية في المقام الأول، ويعمل على رسم حدود بعيدة عن الاعتبارات الدينية والثقافية والعرقية، وأن البيولوجيين والأطباء، هم المسؤولون عن كل التطورات التي تحدث على مستوى تغيير طبيعة الكائنات الحية بما في رذلك الوجود الانساني، " لأن إثارة المشكلات الكبرى في مجال الأخلاق الطبية توجد في مسائل الحياة والموت"[[1]](#footnote-2)1، لهذا كانت دعوات الاهتمام بالمريض من الناحية الجسمية والنفسية لا تخص الفرد بعينه، وإنما تفسح الطريق إلى دفع المجتمع الإنخراط في الشأن الأخلاقي، واسهامه في وضع القواعد والقوانين اللازمة التي يتعين على كل واحد احترامها.

لقد جاءت محاولات نسج هذا المفهوم المتعلق "بالبيوطيقا"، تزامناً مع التحولات العلمية الهامة ونزوعها نحو تقديم الشروح التجريبية وتفضيلها على التفسيرات الميتافيزيقية والدينية، وبروز مفاهيم التدخل البيولوجي، والاستنساخ، موت الرحيم، مكافحة السرطان، اطالة الحياة ...الخ، وهذه المفاهيم في حقيقتها، تناسلت مع التقدم العلمي والثورات التكنولوجية التي غاصت كثيرا في ثنايا تفكيك شفرة تركيبات الكائنات الحية، بعد أن تشكلت الرؤية الابستيمولوجية والواقعية حول امكانية توسيع التكنولوجيات المستمدة من الدراسات الحيوية والطب البيولوجي استجابة لمواكبة عصر العلوم والتقنيات المتعددة .

1. **موقف مُلتبس:**

وتأتي العلمانية كوجه أساس من الإنسانية، لكن أصبح الإيمان بها مُشابهاً لما انتقدته من الإيمان بالأديان أو الموروثات العقلية الغيبية ـ تستشهد المؤلفة بفرويد وتحذيره من الإلحاد المتعصب في كتابه «مستقبل وهم» ـ فالإيمان الخرافي هو نفسه بالضبط اليوم الإلحاد المتطرف الذي يدافع عنه ريتشارد دوكينز. فالعلم المحتفى به اليوم ليس محصناً ضد الخطابات والممارسات القومية والعنصرية، لذا يجب مقاومة أي ادعاء بالنقاء والموضوعية والاستقلالية العلمية مقاومة شديدة. فكونك علمانياً يجعلك متواطئاً مع المواقف الاستعمارية الغربية الاستعلائية الجديدة، بينما يكون رفضك لإرث التنوير، متناقضاً بطبيعته مع أي مشروع نقدي.. إنها دوامة خانقة. وبالبطع نتأكد من هذه المعضلة عندنا في الشرق، حيث يبدو أي صوت تنويري مرادفاً للعمالة الغربية والاستعمار، وما شابه من قائمة الاتهامات المعهودة.

وتعود المؤلفة لتوضح في ظل هذه الأزمة أن «ما بعد الإنسانية» هي.. اللحظة التاريخية التي تمثل نهاية المعارضة بين الإنسانية ومناهضة الحركة الإنسانية، وتتبع نهجاً حوارياً مختلفاً يتطلع بإيجابية أكثر نحو بدائل جديدة. وترى أن الحل أو أن هذه البدائل تتمثل في مفهوم (أوروبا البدوية) أو (التحول إلى الأقلية) أي.. مقاومة القومية وكراهية الأجانب والعنصرية، وهي العادات السيئة لأوروبا الامبراطورية القديمة، ذلك من خلال اتخاذ موقف حازم ضد متلازمة (أوروبا الحصن) وإحياء التسامح بوصفه أداة للعدالة الاجتماعية.

من ناحية أخرى يتمثل مصطلح (أوروبا البدوية) هذا بأن تتحول أوروبا إلى أقلية، أي.. رفض الدور التبشيري الذي خصصته أوروبا لنفسها، باعتبارها مركزاً مزعوماً للعالم. وفي الأخير لا تنفي المؤلفة أن فكرتها هذه قد تبدو خيالية، إلا أنها استباقية لاختلاق رؤى ومشاريع بديلة للأزمة القائمة بالفعل.

1. **هاجس سلطة التقنية:**

لم يكن النقاش الفكري المفتوح الذي طال بعمق المسائل البيولوجية والطبية والأخلاقية معزولاً عن المأزق الذي خلفه الهاجس التقني، هذا الأخير دفع العلماء والفلاسفة إلى إثارة مختلف المساءلات حول مشروعية الحرص على التوجيه العقلاني السليم لمسار العلم، وعدم الوقوع في فخ استباحة العمل العلمي التجريبي بعيداً عن أصول التطاول على الطبيعة الانسانية واختراق هوية الكائنات الحية، والتحذير المتزايد من التقنية وانعكاسها السلبي على مستقبل الكائنات الحية بعامة والوجود الانساني بصفة خاصة.

ومن ناحية أخرى، قد تبين أنه وجود إحساس عام لدى العلماء والفلاسفة ورجال الدين بضرورة تكثيف مشاغلهم وهمومهم الفكرية حول امكانية انعاش الجدل العلمي والأخلاقي الذي يدخل في سياق معرفة حدود التقنية، والتصورات التي تصل إليها قناعة العلماء الذين يشتغلون في حقل التجريب حين تتعاظم إرادتهم حول عصرنة الخطاب العلمي وتكييف الممارسات التقنية حيال التطورات التي تحصل على المستوى البيولوجي والطبي .

إن وجوب اعادة النظر في المشكلات التي يواجهها العلماء تحدث أثناء الانتقال من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي والذي يتصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالحياة الانسانية، وما يقتضيه محتوى المناهج العلمية في البحث عن قيمتها وحدود المعارف العلمية المستخلصة من التجارب التي تقام على الحياة الانسانية، فتسعى إلى تجسيد رؤية نقدية ابستيمولوجية موجهة أساساً إلى وجود بعض الاعتراضات التي تمس العمق التقني في تطبيقاته العلمية المتعددة، إذ " يسترشد العلم الناضج بنموذج علمي وحيد والنموذج العلمي يحدد معيار النشاط داخل الميدان العلمي الذي يحكمه. إنه يقوم بتنسيق وتوجيه أعمال المشتغلين بالعلم السوي الذي يعمل على حل "الألغاز"داخل المجال الخاص به"[[2]](#footnote-3)1، ولا يتعدى إلى غيرها دون معرفة حدوده، لهذا كانت الدعوة إلى ربط التقنية بالأخلاق وبالواقع مسألة مشروعة، لهذا يقول "فرانسوا داغوني":" إننا نعتقد بالفعل أنه في استطاعة الفيلسوف بل ينبغي عليه أن يأخذ هذا الدور، حتى ينسف هذه الذرائع ويعيد النظر في نتائج هذه التطبيقات"[[3]](#footnote-4)2 ، التي خلقت رعباً كبيرا حول مستقبل البحوث التجريبية من دون تقييدها بغطار أخلاقي ملائم لها .

لهذا ساد الاعتقاد أن تطبيق التقنية دون الوعي بتداعياتها، قد تنجر عنه أخطار كبيرة ومعضلات صعبة لم يتوقعها العلماء منذ البداية، وهو الاستسلام لإرادة صارمة للقيام بالتجارب دون مراعاة أي سلم أخلاقي، وجنوح التقنية إلى التطبيقات الواقعية التي فرضتها عنوة على الجوانب البيولوجية والتي تمس الكائنات الحية بما في ذلك الانسان، لهذا "وصف العقل الأداتي بوصفه دليلا على ظاهرة التمركز حول العقل التقني التي أرساها المجتمع الحديث"[[4]](#footnote-5)1 ، كنمط يحدد الوجهة الحضارية للمجتمعات المتقدمة في صناعة التطور المادي والفكري وتجسيد شعار الوفاء لإرادة المعرفة التي سوف تتحول مع مرور الزمن إلى إرادة القوة.

ولدعم الطابع الأنثروبولوجي للتقنية يعمد المفكرون إلى تقديم حجتين: الأولى منها تجزم بأنها مؤسسة على العلوم الطبيعية الحديثة، والثانية، تعد إحدى تطبيقاتها الملموسة، فلقد أصبحت هذه العلوم بفضل اختراعاتها الخارقة إحدى أبرز الفتوحات الإنسانية التي جعلت التقنية تنتمي للحضارة ومشروع الأنسنة، ولا يمكن تقييمها إلا بربط مساهمتها في تطوير الثقافة الإنسانية في مجال البحوث الحيوية، " لأن العلم والتقنية يجب اعتبارهما كنمطين لترقية نشاطهما وبتأثير أحدهما في الآخر عندما يتعلق الأمر بطرح المشكلات أو بتقديم الحلول الممكنة"[[5]](#footnote-6)2، فهذه العلاقة القائمة بينهما، تسهم بشكل أو بآخر في ترقية الأداء التجريبي السليم.

إذا كان النشاط العلمي يستهدف الحقيقة بدافع المعرفة، ودفع سبل التقنية إلى حدودها القصوى، فهذا الفضل يعود إلى استراتيجية تغيير وضعية الانسان وفي ترقية تفكيره وانتقاله من مرحلة الفكر اللاعلمي إلى مرحلة الفكر العلمي الممنهج، وبناء مجموعة من القوانين ومعرفة الظواهر الطبيعية المحيطة به، وتخطي الحالة الدينية والميتافيزيقية إلى المرحلة الوضعية على حد تعبير "أوجست كونت"، في الوقت الذي أصبح فيه "العلم يهذب العقل ويعلمه"[[6]](#footnote-7)3 بلغة "غاستون باشلار".

1. **تجاوز المحدوديات البشرية:**

إنّ التوق البشري لاكتساب قدرات جديدة غير مسبوقة توقٌ قديم قِدَم نوعنا البشري ذاته، إذ لطالما جاهدنا في توسيع حدود وجودنا البشري في المستويات الاجتماعية والجغرافية والعقلية كافة، وثمة ميلٌ طاغٍ ومستديم لدى بعض الأشخاص - في أقلّ تقدير - للبحث عن انعطافة يمكننا من خلالها تجاوز أي معضلة وجودية أو محدودية يمكن أن تطال الحياة البشرية أو السعادة البشرية أيضاً.  
وتعدُّ ملحمة غلغامش الرافدينية ذائعة الصيت الوثيقة البشرية الأولى التي أكّدت سعي الكائن البشري للخلود من جهة، ويقينه آخر الأمر بأنّ هذا الخلود لن يتحقق عن طريق الاستمرارية الجسدية، بل باستمرارية الأثر الطيّب والفعل الصالح. وهنا، نلمح هذا الإسقاط الفلسفي الذي ينطوي على ثنائية متضادة، إذ لطالما تمّ تصوير المسعى البشري لتجاوز المحدوديات الطبيعية الحاكمة باعتباره مسعى ينطوي على ازدواجية يدفعها ما يمكن توصيفه بِـمفهوم «الغطرسة»، ثمّ يدافع هؤلاء الذين يرون في هذا السعي البشري غطرسة خالصة عن وجهة نظرهم بالقول إنّ بعض طموحات هذا المسعى ستندفع خارج سقف المحددات الطبيعية الضرورية لإدامة الحياة البشرية، وبالتالي ستكون مجلبة لبعض النتائج السلبية العكسية، إذا ما تحقّقت بالفعل على أرض الواقع. يمكننا أن نلحظ شيئاً من هذه الثنائية في الميثولوجيا الإغريقية: سرق «بروميثيوس» النار من زيوس (كبير الآلهة الإغريقية)، وأعطاها للبشر الفانين، الأمر الذي ترتّب عليه تحسين دائمي للوضع البشري بسبب مفاعيله وتأثيراته، لكن بروميثيوس تلقّى عقاباً صارماً من زيوس بسبب فعلته تلك.  
  
تمثل «ما بعد الإنسانية» تتويجاً للحلم اليوتوبي البشري في الانعتاق من أسر المحدوديات البيولوجية الحاكمة للوجود البشري (المرض، والوهن، والشيخوخة، والخرف، والموت)، ويمثل السعي للخلود الوجه الآخر لما بعد الإنسانية. وهنا، يمكننا القول إنّ الوسائل التقنية وتداخلاتها العميقة صارت هي المرتكز الذي يُراد منه تحقيق ما عجزت عن تحقيقه الأحلام اليوتوبية.  
ولا بد هنا من التأكيد على أنّ «ما بعد الإنسانية» هي أبعد من مجرد تطويرات تقنية تحصل للكائن البشري، وتجعله يغادر مرتبة الكينونة البشرية البيولوجية الكلاسيكية، بل إن المدلول الفلسفي (الأنتولوجي) (الوجودي) للكينونة البشرية ذاتها ستعادُ صياغة مفهومها بعد مغادرة مفهوم «مركزية الكائن البشري» في محيطه البيولوجي، كما هو حاصل اليوم، حيث سنشهد إعادة صياغة كلّ الأنساق البيولوجية والمعرفية التي تميّز الوجود البشري الحالي. ومن هنا، جاء مفهوم «نهاية الكائن البشري الكلاسيكي»، ليكون خصيصة مميزة لعالم ما بعد الإنسانية.

1. **الخطاب الشائع حول صلة الدين بالازمة البيئية:**

وإذا حاولنا من جانبنا تناول قضية علاقة الدين بوجه عام بأزمة البيئة، فإننا نلاحظ في البداية أن هناك خطاب شائع يعتبر أن ابتعاد الإنسان بداية منذ عصر النهضة، وبعد ذلك في عصر التنوير، عن القيم الدينية، حيث أسلم قيادته إلى العلم والتكنولوجيا هو الذي أدى به إلى هذه الأزمة المتعلقة بالبيئة. ومما لا شك فيه أن هذه النظرة تحمل في طياتها انجاها إلى الحل يتمثل في العودة إلى القيم الدينية من أجل الخروج من هذه الأزمة. لكن هذا التصور على بساطته ووضوحه ينطوي على مجموعة من المعضلات أولها أن الأزمة فرضها عصر التقنية مما يجعلنا بإزاء معطيات جديدة وإشكاليات لم يسبق لها أن طرحت علي الإنسان، وهذا يجعل من الصعب الوصول إلى إجابات جاهزة في الخطاب الديني التقليدي، كما أن من يتصدون لتفسير الأديان يصلون كما رأينا إلى مواقف متفاوتة بل وقد تكون متناقضة ويجدون في كل حالة ما يدعم رأيهم من النصوص الدينية والمعضلة هي أن أزمة البيئة عالمية بطبعها وتخص البشر جميعا على اختلاف ثقافتهم و أديانهم، فيحين أن الخطاب الديني يكون موجها إلى أتباع دين معين ويقل تأثيره الفكري عندما يتوجه إلى أصحاب الديانات الأخرى. وهو ما يؤكد الحاجة إلى خطاب فلسفي يتسم بالعقلانية والعمومية. ويوجه إلى المؤمنين وغير المؤمنين على السواء، وإلى أصحاب الديانات السماوية والديانات غير السماوية في الوقت نفسه. وقد انتبه إلى هذه المعضلات روبرت جوردیسRobert Gordisفي مقال له بخوان العلم والقانون الطبيعي والأخلاق من منظور يهودي حيث يقول: "إن الروح العلمية والمعايير الدنيوية قد سادت على المستويين الاجتماعي والفكري علاوة على ذلك فإن المؤمنين بالله غير جاهزين لقبول أي قانون أو معيار على أنه موحي به من قبل المقدس فالدين، في حد ذاته، لم يعد ملائما لتقديم أساس عقلاني للأخلاق" ([[7]](#footnote-8))

1. **موقف يوناس:**

ونحن لا نذكر هذه المعضلات لكي تستبعد إسهام الدين في حل مشكلة البيئة. فلا شك أن إسهام الدين عنصر مهم لا يمكن بأي حال إغفاله. ولكننا أوردناها فقط لكي نشير إلى أن الوضع يستدعى جهدا في التوصل إلى قراءة جديدة، سعيا إلى الوصول إلى أرض جديدة للقاء بين الأديان، ليس على أساس عقائدي ولكن على أساس اقتراح حلول مجدية للبشر بوجه عام، تتجلى في شكل قيم إنسانية يمكنها أن تجمع بين البشر، كما أن الإسهام الضروري للدين ينبغي أن يتضافر مع إسهامات الفلسفة والعلم والفن وكل مكونات الثقافة.

لا ينتهي موقفنا النقدي مع يوناس بخصوص موقفه من الدين بوصفه منظومة من العقائد ومجموعة من النصوص المقدسة. ولكن ينسحب أيضا على موقفه من الفكرة المركزية في كل دين وهي فكرة الله فموقف يوناس من فكرة الله بعد الأوشفيتس جعله يتشابه مع الغنوصية نفسها التي استفاض في نقد موقفها من الله فعلاقة الله بالعالم في التصور الغنوصي سلبية تماما. فالعالم يبعد عن الله، ومن بريد الالتحاق بالله لا بد له أن يتحرر من العالم.[[8]](#footnote-9)

وتتلخص تأملات يوناس في مفهوم الله بعد الأوشفيتس في أن الله سمح بحدوث الهولوكوست لأنه لم يستطع أن يتدخل ليمنع حدوثه، أي أن الله أصبح لا يتدخل ليمنع حدوث الشر في العالم. وبذلك يكون الله أيضا منفصلا عن العالم، وليست لديه به أية علاقة هذا التصور الذي تبناه يوناس هو عينه التصور الذي انتقده في موقف الغنوصية من علاقة الله بالعالم، ولذلك فإن وصف يوناس للغنوصية بأنها فلسفة عدمية يمكن أن ينسحب على بوناس نفسه كذلك فإن وسم يوناس لنيتشه بالعلمية بسبب مقولته: "إن الإله قد مات" وهي ما تعنى عند نيتشه أن الإله لم يعد مؤثرا في العالم، وأن القيم المسيحية التي تشتق شرعيتها من المقدس لم يعد لها قيمة هذه العدمية النتشوية يمكن أن تعاينها أيضا في الموقف الذي اتخذه يوناس نفسه.

1. 1 - Alain Pompidou, Souviens –toi de l’homme, l’éthique, la vie, la mort, Ed Payot, Paris ,1990 , p.212. [↑](#footnote-ref-2)
2. 1 - آلان شالمرز: نظريات العلم، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1991.ص 96. [↑](#footnote-ref-3)
3. 2 - François Dagognet , Le vivant, éditions, Bordas, Paris, 1988, p.164. [↑](#footnote-ref-4)
4. 1 – هابرماس التقنية والعلم كايديولوجيا ، ترجمة، إلياس حاجوج، وزارة الثقافة ، دمشق سوريا، ط1، 1999، ص 88. [↑](#footnote-ref-5)
5. 2 - G.Conguilhem, connaissance et vie, Ed, Vrin, Paris,1967, p. 125. [↑](#footnote-ref-6)
6. 3 - Gaston Bachelard: la philosophie du non, PUF, 4éd, Paris, 1994, p.29. [↑](#footnote-ref-7)
7. ()وجدي خيري نسيم: الفلسفة وقضايا البيئة، اخلاق المسؤولية عند يوناس، ص248. [↑](#footnote-ref-8)
8. المرجع نفسه، ص251. [↑](#footnote-ref-9)